طبيب زهيري
بقلم : محمود نيمور

عدت الى دارى بعد منتصف الليل بقليل ، وتوخيت على الفور مكتبى ، وقد استقر منى العزم على أن أتم الفصل الختامى من قصتى المطولة « زهيرة » ، بعد أن ظل دون اتمام وقتا ليس بالقصير .

لزام أن افرغ من القصة مهما يكن من أمر ، فلم يعد للتسويف مسوغ .

و « زهيرة » هذه فى القصة التى تحمل اسمها : غانية لعوب ، تأسر قلوب الرجال ، وتتحكم فيما لهم من مصاير وأقدار ، وانها لتتميز بجاذبية انثوية فتاكة ، وان حياتها لسلسلة من المغامرات موصولة الحلقات فى دنيا اللهو والمجانسة والهوى .

كانت شخصيتها مثار اعجاب من حولها من الناس فى أحداث القصة وطواياها ، ووجدتنى مشغوفا بشخصيتها تلك التى سويتها لها على ما بها من غرابة وتعقد ، اذ كانت تجمع بين المتناقضات ، فهى مزاج طريف من التضحية السامية والأنانية الوضيعة من الرحمة البالغة والقسوة العنيفة ، من الحب الفياض والكراهية المستعرة ، من الأريحية السخية المبذرة والابتزاز للمال فى شراهة ممقوتة .

والآن ، وقد قضت « زهيرة » حياتها نهبا للأعاصير الهوج ، حان لها أن تستخفى عن العيون ، وتترك مكانها على مسرح الوجود . فلقد أدت دورها كاملا غير منقوص ، وحق عليها أن تنتهى أيامها ، ذلك ما تحته ملابسات حياتها ، وهو ختام طبيعى يساير منطق الأحداث فى غير تكلف ولا افتعال ، على ما يثيره فى نفسى من شعور الأسى الدفين .

وبسطت الأوراق بين يدى ، واستغرقت فى تفكير ، أقلب الأمر على شتى الوجوه . وأخيرا أشرعت القلم لأكتب ، واذا أنا بغتة أحس شيئا يمس كتفى ، فالتفت أستبينه .. لا شىء .. الصمت والهدوء يضربان دونى نطاقا .

ولم تمض لحظات ، حتى تصيدت أذنى صوتا أشبه برفيف أجنحة الفراشير ، بل ما أشبهه بوسوسة النسيم .

ان الصوت يحوم حولى .

ثم تراءى لى دخان أبيض ، لم يلبث ان تشكل فى صورة آدمية ، وكادت تنطلق منى شهقة ، وفغرت فمى وأنا أحدق فى الطيف ... أترانى أمام روح تزورنى من عالم الآخر ؟

وتدانى الطيف منى على مهل ، وسمعته يتكلم هامسا :

« ألا تعرفنى ؟ »

هذه ملامح ليست غريبة عنى ، ونبرة الصوت مألوفة لى .

ـ يخيل الى أنى عرفتك ، ولكن ... اين ؟ ومتى ؟ وكيف ؟

وانبعثت من الطيف ضحكة نسوية ناعمة ، طالما تجاوبت أصداؤها فى أذنى من قبل .

وسمعتها تقول :

ـ نحن نلتقى فى هذه الحجرة كل ليلة ...

فسرت فى أوصالى رعشة ، وهمهمت :

ـ أممكن هذا ؟

ـ كل الامكان يا صاح ...

ـ عجيب ... ولكن اليس لى أن أعرف مبعث هذه الزورة ؟

فمثلت هى بعض وقت فى صمت ، لا تختلج لها جارحة ، ثم قالت :

لماذا حكمت على بالموت ؟

ـ أنا ؟ كيف ؟

ـ الأوراق المبسوطة أمامك تشهد بصدق دعواى .

والفيتنى احملق فى الأوراق ذاهلا ، ويدى تمتد اليها تعبث بها . وشعرت بيد تمس منكبى ، فكأنما لامسنى تيار كهربى ، واذا هى تقول :

أريد وقف الحكم الذى أصدرته على ... لا أريد ان أموت فى هذه السن المبكرة ..

فأجبت وعيناى مشدودتان الى الأوراق :

ليس ثمة مفر من موتك ... التطور الطبيعى لحياتك يسلمك لابد الى هذه النهاية .. الى الانتحار !

فصاحت فى حدة :

لا ، لن انتحر ، لن أموت ، وستلغى انت بنفسك هذا الحكم الظلوم !

ـ ليس فى الأمر حيلة .

ـ قلت لك لابد أن تلغى حكم الموت .

ـ وهل الأمر بيدى ؟

فتضاحكت تقول :

فى يد من اذن ؟

ـ فى يد الأقدار !

ـ أنت الذى تسوى قدرى ، وتخط مصيرى .

فرفعت اليها بصرى ، أقول مغمغما :

انا لا أسوى قدرا ولا اخط مصيرا .

هيهات .. هيهات !

ـ أنت خالقى ، وما أنا الا وليدة الهامك ..

ـ لقد أطلقتك حرة ترسمين منهج حياتك بنفسك ، ولا أحد غيرك مسئول عن تصرفاتك .

ورأيتها تطيف بى صامتة ، ثم همست :

اذن فلا أقل من أن تمد الى يد العون ...

ـ حبذا ... لو استطعت !

ـ فى مستطاعك ان تفعل ...

ـ كيف ؟

فاحسست بخيالها يتمسح بوجهى ، ولكأنما هناك نسمة عبقة يتضوع منها اريج الزهر ، أريج نفاذ يبعث النشوة فى القلب .

ومضت تبدى لى مفاتنها فى اغراء واغواء .. فوجدتنى أقول :

احتشمى يا « زهيرة » .

ـ ماذا تنكر مما أصنع ؟ ألست فى دارى ؟ ألست فى الموطن الذى شهد مولدى ؟

ومثلت أمامى فى وضعة مثيرة .

ـ جهد ضائع تبذلينه ... أؤكد لك .. لا تحسبى أنك قادرة على اخضاعى بمثل هذه الوسائل التى تجيدها الغوانى .. لست واحدا من عشاقك المتولهين بك !

فرفت على محياها الرقيق ابتسامة ، وقالت فى طراوة انوثة :

اتزعم أنك غير متوله بى ؟

ـ انا ؟ ... أنا أتوله بك ؟

فشعرت بكفها المواج يداعب خـدى مهدهدا .

ـ أنت فى طليعة الواقعين فى أسرى .. لن تفلت من سحر فتنتى .. لن يجسر أحد على أن يعصينى !

ـ يا للمغرورة المتأمرة !

ـ هكذا سويتنى ...

وما لبثت هى أن تمددت على المتكا فى استرخاء .

ونهضت أنا اذرع الحجرة مضـطرب الخطا ، ويداى معقودتان على صدرى .. أغدو وأروح ... وأروح وأغدو .. ثم اخـذت مكانى من المكتب متهاويا على المقعد .

ـ هل وفقت الى وسيلة أنجو بها من الموت ؟

ـ لا ... وا أسفا !

وتقضت فترة صمت جياشة .

وبغتة سمعت نشيجا مؤثرا .

واذا أنا عن كثب من المتكا أعالج أن أسرى عنها ..

ونهضت تلملم من شـعثها ، وتصلح من مظهرها .

ـ الى أين ؟

ـ الى المكان الذى هيأته لى هناك .. المنضـدة .. وزجاجـة الشراب .. والمسدس .

وندت منى صيحة ذعر .

ـ لا .. لا .. بحق السماء لا تفعلى .

ـ اذن ؟

ـ امهلينى أتدبر الأمر ، لعلى وأجد مخرجا ...

وعادت الى المتكا تستوى عليه ، أما أنا فانتقدت حشية صـغيرة على الأرض بمقربة منها .

ـ الديك شراب يا حبيبى ؟ .

وسرعان ما كان الشراب .

وشرعنا نتساقاه على مهل .

ـ لابد أن أجد حلا يا « زهيرة » .

ـ وهل يستعصى عليك أن تجده ؟

ـ نستطيع أن نتعاون معا .. نفكر .. نتبادل الرأى ...

وأمضينا الأمسـية فى منادمة بهيجة وسمر أنيس .

ولذت بمخـدعى سـكران أترنح وأترنم .

وفى غد عدت الى دارى ، بعد منتصف الليل بقليـل ، وجلست الى مكتبى ، تشيع بين جوانحى غبطـة وانشراح ، وتناولت الأوراق التى تم فيهـا تدبيج الفصل الختامى من قصة « زهيرة » ، وطفقت أزوده باللمسـات الأخـيرة ، وكنت كلما مضيت فى القراءة داهمنى شعور غامض فيه ألم وحسرة .

راجعت ، وعاودت المراجعة ، والمرارة تزداد بى .

واستشطت غضـبا ، فضربت المكتب بيدى ، وأنا أجمجم لا أبين .

ثم جمعت الأوراق ، أوراق الفصـل الختامى ، وانهلت عليها أشبعها تمزيقا .

وسمعت صوتها الشاجى :

يبدو أن نجاتى من الموت محال .

ـ لقد جعل الريب فى كفايتى يتسرب الى نفسى !

ـ اذن لا أمل ؟

ـ كل شىء يتيسر بالمهارة .. فلماذا تخوننى مهارتى ؟

ـ فلتحاول كرة اخرى ...

وامتدت أمامنـــا مائدة الشراب ، واقبلنا على منـــادمة وسمر ، وتالقت شخصية « زهيرة » طاغية آسرة .

... وتوالى تدبيج الفصل الختامى من جديد .

وتوالت جلسات الأماسى ثائرة معربدة حول مائدة الشراب ، ويا لها من أماسى واصلنا فيها السهر حتى مطلع الفجر ، وما أشبهها بليالى « ألف ليلة وليلة » ، كنت فيهـــا « شـــهريار » ، وكانت « زهـــيرة » « شهر زادى » تحاول بحديثها المأنوس أن تستخلص رقبتها من سيف الجلاد !

أما نهارى فكان كله هما وحنقا ، وشعورا بالخيبة والاخفاق ...

القصة بلا ختام .

الفصل الأخير مكانه شاغر .

أيظل كذلك الى الأبد ؟

أأكون قد وقعت فى براثن غانيـــة تحسن الكيد وتجيد العبث بالرجال ؟

أغدوت فريسة لها ؟

أأدع فنى صريعا بين يديها ؟

وارتقبت أن ألقـــاها لأحسم معها الموقف الحائر المتميع ...

وما كاد المساء يزفها الى ، حتى تدانيت منها فى رفق ، وجلست معها على المتكا . وبعد صمت قالت :

ما بالك كأنك تنطوى على سر ؟

فأجبتها ، وأنا منسرح النظر :

سأفضى اليك بذات نفسى يا « زهيرة » ...

أجيبينى .. ماذا يخيفك من الموت ؟

فانتفضت تقول :

عجبا لك ، الموت هو الموت ... انه الضياع الأكبر .

ـ ليس موتك ضياعا ... فالقصة الخالدة يخلد أبطالها معها .

ـ هل لك فى الشراب ؟

لهذا الخلود الذى تفرضه لها ؟

ـ كل شخصية تؤدى مهمتها فى الحياة الى نهايتها ، دون تكلف أو افتعال ، لها من الخلود نصيب ... فاذا لم تتخل عن مكانتها ، وقد انتهت مهمتها ، كان وجودها لغوا ، وليس اللغو من سمات الخالدين !

ـ ولكن ما انتفاعى بهذا الخلود ، وقد حرمنى الحياة ؟

ـ ان الخلود هو الحياة الحقة ...

ـ ولكنى لن استشعر هذه الحياة الحقة التى تشيد بها ، فالموت هو الجمود المطبق ، والسكون المطلق ..

ـ لا جمود ولا سكون يا « زهيرة » الموت مجرد انتقال من حال الى حال .

فصاحت :

فلسفة عويصة يصعب على مثلى ادراكها ! ... قصارى ما أفهمه ان الموت ظلام ووحدة وبرد ! ... وما أقسى !

ـ هذا ما يصوره لك خيالك المحدود ، خيالك المرتبط بك باعتبارك كائنا بشريا على ظهر الأرض ... أما اذا أرهفت الحس ، وأذكيت البصيرة ، وسموت بالروح ، فسيتجلى لك أن الموت تطور فى الذات الانسانية .. فلا فناء ولا عدم

فصاحت :

كيف ؟ أكاد أفقد رشدى !

ـ الرشد هو أن تؤمنى بأن العدم لا مفهوم له .. لا فى العقل والعلم ، ولا فى الفلسفة والدين !

ـ تحاول جهدك اقناعى بقبول الموت بصدر رحب ، لتستنفد فنك ، تريد أن تودى بى ، طوعا لما يتطلبه مجرى قصتك ..

فنكست راسى ، ولم أحر جوابا .

وانقطعت لا تزورنى ليالى ، متوالية ، فنالنى قلق ، وشاعت فى نفسى كآبة . وعندما عاودت زيارتى أقبلت عليها ملهوفا .

ـ افتقدتك يا « زهيرة » ...

ـ أحقا ؟ .. قالتها فى نبرة شجن ولوعة .

ـ هل لك فى الشراب ؟

ـ لن أشرب ..

وازداد بها التجهم .

ـ ماذا يشغلك ؟

ـ لا شىء ...

وخيم علينا صمت .

ثم سمعتها تخافت بصوتها :

ليكن لك ما تريد ... ليكن فنك منزها عن الافتعال .. لا فرض فيه ولا الزام .

ـ فلننس الفن والافتعال فى مجلسنا الحاضر .. علينا أن ننتهب المتعة انتهابا .

ـ والفصل الختامى ؟

ـ ليظل مكانه شاغرا .. لن تموتى يا « زهيرة » على أية حال !

ـ بل يجب أن تتم الرواية فصولا ، وان ذهبت حياتى فدية لتمامها ...

ـ انى واثق بكفايتى ، ولن أعبأ بحل ينقذك من الهلاك ..

وامتدت بيننا مائدة الشراب ، تحيى ليلنا الساهر ..

لم تعد « زهيرة » تتعهدنى بالزيارة بانتظام ، وأخذت زوراتها تقل حينا بعد حين ، واختفت فى سهراتنا مائدة الشراب ، فكأن الوقت يمر بيننا جامدا ليس فيه الا الحسرات .

وتواصل اختفاؤها ، وأنا اترقبها فى تشوف .

وكلما طال غيابها ، ازددت من حيرة وشتات فكر .

وفجأة أحسست ثورة تهب من أغوار نفسى ، وتجلت لعينى تفاهتى ، وأنا أشهد مكان الفصل الختامى من القصة شاغرا أبيض الصفحات .

كان انقاذ « زهيرة » من الموت عقبة ليس الى تخطيها من سبيل .

ومرة بعد أن بلغ بى التفكير والتحبير مبلغ العنت والارهاق ، انتقلت الى المتكا أطلب فيه غفوة استرخاء واسترواح ، وأغمضت جفنى .

وانبهتنى طلقة تدوى فى الحجرة .

واذا أنا أمام مشهد ملأنى رعبا ...

تراءى لى فى سماء الحجرة نثار من سحاب أبيض ، وما أسرع أن تبينت صورة « زهيرة » وقد تمزقت أوصالها وتطايرت قطعة قطعة .

وتجلى لى وجهها ، وهو يعلو ويرق : جفنان مسبلان ، ومحيا ممتقع وملامح بالغة الأسى .

ووقفت وقتا مصعوقا أمام ذلك الحطام المبعثر ، وهو يتزايل شيئا فشيئا ، حتى لم يبق له أثر .

ورجعت الى مقعد مكتبى أتهالك عليه ، وتعلقت عينى بالورقة الأخيرة للقصة ، وكنت قد تركتها بيضاء ، فاذا يد قد خطت فيها هذه السطور :

« تناولت « زهيرة » المسدس ، وتأملته مليا ، ثم ابتسمت ، وقد اكتست عيناها بالدموع .. لم يعد لها من مطمح فى الوجود .. لقد عاشت حياة صاخبة مثيرة ، ولقد آن لها أن تستريح .. آنها تموت منتحرة ! »

ولاح لى المسدس على مقربة ، وجعلت أقلبه بين يدى ، وأنا لا أتمالك من فرط ما عرانى من اضطراب وخبال ..

ماذا ؟ .

أكون حقا أمام حادثة انتحار ؟

أم .. أنا أمام حادثة قتل عن عمد ؟

وتركت المكتب ، قاصدا المقعد الوثير ، وألقيت بجسمى عليه ، وأملت رأسى الى ظهره .

وطفرت من عينى دمعة حارة .

ثم وجدتنى وقد انطلقت من أعماق صدرى تنهدة ارتياح !